راية حب

رضوى جاويش

كان يتهادى إلى مسـامعه من ذلك المقهى على الجانب المقابل من الطريق، صـوت الشـيخ عبد الباسـط صـادحا بإحدى آيات الذكر الحكيم، وهو يقف خلف تلك الشـجرة العتيقة يتحسـس نحتا لحرفين متشـابكين على جذعها الضـخم، ويرفع نظره إلى إحدى الشرفات لعله يرنو إليها ولو لمرة أخيرة. اسـتند بظهره المتيبس على شـجرة الذكريات تلك، يتذكر ما فات وعيونه تهزها دموع حارقة، أبت أن تخضـع وتُهدر على خديه. جاد بنظرة أخرى على نفس الشرـفة، لابد وأنها تغط في نوم عميق فالسـاعة الأن قد تجاوزت الخامسـة صباحاً بقليل. كل شيء لازال ساكناً، إلا صوت الذكريات الصـاخب في كل ما يحيط به، شرفتها وشرفة منزل أبيه وشـجرة الحروف هذه التي جمعت حروف اسميهما متعانقين حتى اللحظة، والمقهى البلدي الذي تحول مع الزمان إلى مقهى حديث والذي انتهى من الوصلة القرآنية الصباحية الجالبة للبركة. لتصدح أم كلثوم برائعتها الأطلال.. والتي كان من عادة صـاحب المقهى افتتاح اليوم بها ويبدو أن ذاك التقليد لم يقطعه ورثته حتى الأن فها هي تصدح..

هل رأى الحب سكارى مثلنا.. كم بنينا من خيالٍ حولنا

ومشينا في طريق مقمرٍ.. تثب الفرحة فيه قبلنا

وضحكنا ضحك طفلين معاً.. وعدوّنا فسبقنا ظلنا

كاد أن يضع كفيه على أذنيه رغبة في منع سماع الكلمات التي تصل لمسامعه لتكون كمن يضع الملح على جراحه والتي لم تندمل بعد، ويبدو انها لن تندمل أبدا، فهي لا تزال حية على حالها وكأنها منذ الأمس القريب، ولم تمضيـ عليها كل تلك السـنوات... لايزال يرى

الأنوار تزين المنزل بطوله وعرضــه، أنوار زفافها، لازالت تلك الأنوار تسطع في ذاكرته كوخزات من إبر، وأغاني الزفاف كنعيق بوم وغربان في يوم شــؤم، ومن أعاجيب القدر أنه نفس اليوم الذي اســتلم فيه جواب تعيينه في إحدى المناطق النائية، وكم حمد الله على ذلك. الأن يتذكر كيف رحل هربا، من الأنوار ومن الأغاني ومن الذكرى ليرحل بعيدا يلعق جراحه وحيدا لعلها تندمل في البعد...

لا أحد يموت من الحب، هكذا أخبره أباه عندما رأى حالته التي يرثى لها عندما علم بخطبتها وأســوء حالاته على الإطلاق، يوم زفافها، يوم أن خلف الدنيا بأسرها وراءه ولم يعود أبدا...

أحقا لا أحد يموت من الحب!!؟؟ إذن لما يشعر حقا بأنه ميت منذ أن رحل عن هنا، منذ أن رحل عنها... يتنفس، يأكل، يشرب، لكنه لا يحيا، روحه فارقته منذ وطأت أقدامه خارج حيهما، ولا يشــعر بالحياة إلا هنا.

يأتي يتزود بمخزون الحياة كل فترة ويعود من حيث أتى، يكفيه أن يتنفس نفس الهواء الذي تتنفســه ليعبر إلى رئتيه محملا عبقها حتى يشعر بالحياة تدب في أوصال روحه السقيمة التي لا علاج لها... إلا هواها.

انتفضــت روحه كطائر ذبيح عندما شــعر بكف يحط على كتفه، لم يكن بحاجة ليســتدير ليدرك بأنها هي، نعم هي روحه المنتشــية تخبره بأنها هي، قلبه القافز المتوثب بين أضلعه يخبره بأنها هي.

-لازال بإمكانكِ ايجادي أينما ذهبت!!؟؟

قالها في هدوء يناقض براكين الشوق التي تلقي بحممها بصدره، وهو يضع كفه على ذاك الكف الرقيق المتوسد كتفه، لا يجرؤ على الاستدارة ومواجهتها، لكنها أجابت وهي تلتف لتقابله، وتتلاقى القلوب قبل الأعين العطشى..

-كيف لا أجدك!! كيف لا أجد تلك الروح التي احتلت روحي بديلا عن روحي...

رفع رأسه والشوق يعصف به، ليلتهم ملامحها المحببة بعينيه المشتاقة، يا إلهي حتى الزمن توقف عندها... ولازالت تملك نفس العيون الرائعة، والوجه البريء والروح الوثابة التي طالما عشقها، ربما لأنه يراها بعيني قلبه. يجد أنها لم تتغير، لم يمر الزمان عليها يصبغها بريشة الأيام والليالي التي تزيدنا عمرا وقهرا وسهادا..

إنها هي وكأنما تركها بالأمس القريب، وقف يبتهل في محرابها، يتعبد في حرمها، لا يعي شيئا مما يدور حوله.

مدت يدها لتحتضن كفه وتجذبه خلفها، سار وراءها كالمسحور، كطفل مطيع يتبع أمه ليعبرا الطريق، لم يكن يمانع أبدا، يكفي أنه معها، كفها تحتضن كفه ليسير خلفها لأخر الدنيا ولا يبالي. جلسا على إحدى طاولات المقهى الخارجية، نظراته لازالت معلقة بها تأبى مفارقتها، لم ينتبه للنادل الذي جاء ليدون طلبهما:

-فنجانا قهوة سكر زيادة.

قالتها بثقة تطلب له عندما وجدته شاردا ولم ينتبه لمجيء النادل..

-ألازلت تذكرين كيف أحب قهوتي!!؟؟

أومأت برأسـها ودموع ذكرى محببة تطل من عينيها يلمحها شـاردة تطل على الرصيف الأخر حيث كانا منذ قليل:

- أتذكر!!؟؟ كنّا نتفق لنشربها حتى نسهر لنستذكر سويا ونفاجأ أننا أطفأنا أنوار حجرتينا في نفس اللحظة لننام.

انفجر ضـاحكا ولأول مرة منذ سـنوات يضـحك من قلبه، اسـتدرك هو:

-لم يكن هناك شيء يمنعنا النوم قريري العين... أما الأن فما حاجتنا للقهوة والسهاد هو رفيق لياليا الذي لا يفارقها..

أومأت برأسها موافقة:

-هل تزوجت؟؟

سألت في اضطراب تحاول ألا تقابل عينيه.

-أوتسألين!!؟؟

سـأل متعجبا، ولكن أنتن معشرـ النسـاء تسـألن وأنتن موقنات الرد فقط لتطربكن الإجابة.

ابتسمت في خجل وقد وصلها رده قبل أن يجيب، استطرد بصوت يقطر ألما مع كل حرف من حروف كلماته:

-كيف اتزوج بلا روح بلا قلب بلا أمل في حب جديد، فقد استنفذت كل طاقة الحب التي أملك في حبك الذي تملكني. صمت قليلا وهو يزدرد ريقه، ثم اسـتدرك، لم يكن باسـتطاعت الظلم وقد ذقت مراراته وتجرعتها حد الثمالة، لم أكن أستطيع الارتباط بامرأة أخرى

أعلم علم اليقين أنها لن تســتطيع الدخول لقلبي الذي أوصــدت أبوابه خلفك للأبد.

تساقطت الدموع الحارة على وجنتيها وهو يستدرك قائلا:

-يكفيني أني احتفظ بجزء منـك، يكفيني أنى أحتفظ بجزء منـك، يحمل رائحتك، احتفظ به دائما بجوار قلبي. شــهقت عندما أخرج منديلها الذي يحمل أول حروف اســمها، زادت دموعها جريانا على وجنتيها ومدت كفها من خلف غمامة دمعها وهي تتلمس منديلها:

-هل عثرت عليه!!؟ سألت في ذهول...

-هو أخر ذكرى منكِ، أخر ما تركته خلفكِ، كيف لا اجده وكيف لا أحتفظ به وهو الدليل الوحيد على أن حبي لازال عالقا بقلبكِ!!؟؟

مد كفه ليمســح دموعها المنســابة وعيونها معلقة بعينيه تارة وبمنديلها تارة أخرى:

-يوم زفافي تسـللت من غرفتي وصـعدت إلى سـطح منزلنا حيث كنّا نتقابل وتركته بعد أن علقته على إحدى الأحبال هناك، تركته يرفرف كراية حب، وقد أجاد عمله وبلغ الرسـالة بأمانة شـديدة. وابتسـمت من بين دموعها في حبور.

وصــل النادل بالقهوة أخيرا، فمدت كفها تلتقط فنجانها وتمد اليد الأخرى أمامها على الطاولة، حذا حذوها. ارتشــف قليلا من قهوته ومد يده لتظلل كفها الممدودة أمامه، ارتجفت كالمصــعوقة كادت أن تســكب قهوتها، لكنها تركت كفها تختبئ تحت كفه كعصــفور يحتمي بجاحي أمه.

أخرج من ســترته علبة من المخمل، فتحها وأخرج محتواها... خاتم زواج، نظر إليه بين أصــابعه، اشــتريته من أول راتب تقاضــيته كما وعدتك... أتذكرين؟

أومأت برأسها غير مصدقة:

-لازلت تذكر كل التفاصيل الدقيقة التي اتفقنا عليها؟ سألت مبهورة وعاودت الدموع هطولها.

رفع كفه ليلتقط كفها الحبيسة وهو يسأل في تردد:

- هل من حقي أن...!!؟؟ وأشــار للخاتم ولأصــبعها في تردد ورهبة واضطراب ورغبة...

-نعم... أجابت من بين دموعها إنه طبعا حقك، إنه دوما حقك وسيظل للأبد حقك وحدك...

رفع كفها التي يحتضــن أحد أناملها خاتمه وقربها لشــفتيه يقبلها في وله، وجذبها بعيدا عن الطاولة متعانقي الكفين وسارا بعيدا ونظرات نادل المقهى الولهان تتبعهما في حبور، وهتف وهو يجمع فناجين القهوة من طاولتهما... الله... يا ســت... والتي كانت تنهى أطلالها صادحةً...

يا حبيبي كل شيء بقضاء.. ما بأيدينا خلقنا تعساء

ربما تجمعنا أقدارنا.. ذات يوم بعد ما عز اللقاء..